رسومات الأطفال

ماذا تحكي؟ وماذا نتعلم منها؟

ربى الكيلاني

تتحدث التجربة عن أحداث العدوان الإسرائيلي الأخير على قطاع غزة، وما تعرض له الأطفال من مشاهد مرئية أو مسموعة عن أطفال غزة. وقررت المعلمة في هذا المشروع أن تعرض ما هو حال الأطفال ممن هم خارج قطاع غزة، وكيف تأثروا بالأحداث على الرغم من البعد. فمن يسمع هؤلاء الأطفال؟ وأين المكان الذي يمكنهم فيه التعبير عنه دون خوف؟ التجربة تعرض مجموعة من الأنشطة التي ساعدت الأطفال على التعبير، والحديث، تخللها رسم، ودراما.

لغة الفصل في هذه اللحظة هي الماء، السماء تمطر ثلجاً وبَرَداً، هكذا في كل البلاد، إلا أن هناك مطراً آخرَ في غزة، غزة على موعد مع مطر آخر، مطر من نوع آخر، مطر ساخن. ويبدو أن الله قد غاب عن سماء غزةً هذه السنة فأمطرتً ناراً وقنابلَ وصواريخ، الموت يجتاح البشر، الشجر، الحجر، . . . قتلوا كل شيء فيك يا غزة. . . الموت وحده يملأ سماء غزة، الدم الفلسطيني يلمع بدلالات الأحمر. . . فكيف نعبر عنه؟

الأطفال الذين خارج غزة هم في رؤية مستمرة لأحداث القصف، يرونها على شكل وجبات من خلال شاشة التلفاز والفضائيات، يعدون عدد الجرحى والشهداء، يرون الأشلاء هنا وهناك . . . . والأطفال يسمعون ما يقوله الآباء والأمهات والأصدقاء ويرددونه على مسامعنا، لعلنا نقف عند إحدى الكلمات التي يقولونها ليجعلوا الحصةَ هي حصة غزة لا مادةً أخرى . . . فمن يسمع لهؤلاء الأطفال؟

في 22/ 1/ 2009، وقف الأطفال في ساحة الروضة بجانب بعضهم. استغربت عدمَ اكتراثهم بماء السماء المتساقط عليهم، اقتربت، سمعتهم يقولون «وقفوا إطلاق النار»، وطفل آخر «مش الطيارة لما تضوي من آخرها يعني رح تطلّع صواريخ؟».

لكن عندما سمعتُ ما يقولونه ونظرتُ إلى عيونهم، أحسستُ بأن قصتهم هي السماء.

من خلال تجربتي حاولتُ تغيير أسلوب ونمط التعلم مع الأطفال وفي الوقت نفسه المرور في تجربة جديدة. ما أطرحه في هذا المشروع الصغير هو محاولة لمساعدة أطفالي على التفريغ من خلال تعبيرهم عن هذا الحدث، ولتحقيق ذلك اتبعت مجموعةً من الأنشطة التعليمية والتربوية. وما لاحظته أن الأطفال استجابوا معي في جزء كبير من الأنشطة على الرغم من بعض الصعوبات . . . .

وهنا تولدت لدي مجموعة من الأسئلة:

1. هل أنا قادرة على أن أكون مربيةً متميزة؟
2. هل سأنجح مع أطفالي في أول تجربة؟
3. هل سأكون أنا وأطفالي جزءاً متكاملاً في هذا المشروع؟ هل سنكون أنا وأطفالي كل منا جزءاً يكمل الآخر في هذا المشروع؟
4. ماذا سيبني هذا النشاط من علاقة فيما بيننا؟

هناك بعض المقدمات التي كان لها أثر ودافع في طرح هذا المشروع وكتابته على الرغم من صعوبته كتجربة، من حيث التطبيق، ومن حيث كتابة النشاط. إلا أن الكتابة والملاحظة أوقفتني عند مجموعة من النقاط التي لم أكن أركز عليها من قبل، وكلما فكرت بالتجربة أكثر وجدتُ نفسي أقول: لو أنني أعيد النظرَ في هذا الجزء . . . . لو أنني طورته أكثر . . . لو تفاعلت مع هذا الجزء بشكل آخر.

هنا أقف عند هذا الجزء من الكلمات السابقة، التي جعلتني أتردد بعض الشيء في عرض تجربتي، إلا أنني واثقة من أنني حصلت على شيء من التجربة البسيطة التي سأبني عليها مشروعاً آخرَ أكثرَ تطوراً وإبداعاً.

مقترح تطبيقي لفعاليات مع الأطفال

هناك مجموعة من الفعاليات التي تتمحور حول المجال الوجداني، التي تهدف إلى مساعدة الطفل على التعبير عن مشاعره المكبوتة التي تولدت أثناء العدوان على غزة، كما تساعد هذه الفعاليات في إعطاء القدرة على التأثير وتنمية قدرات التعاطف والتعبير وبناء العلاقات بين الناس وتقديم التقدير لمن يساعدهم.

النشاط الأول: الرسم

نشاط تم التخطيط له بناءً على ما سمعته من الأطفال في ساحة الروضة وداخل الصف من قول الأطفال (**في صوت طيارة بالجو**)، وآخر (**الطيارة رح ترمي علينا صواريخ**)، وآخر (**الطيارة لما تضوي من آخرها بترمي الصاروخ**).

الكثير من الأسئلة التي لفتت انتباهي وشعوري تجاه الأطفال لها مكنون داخلي، ما جعلني أقوم بهذا النشاط دون تردد، نشاط يسمح لهم بالرسم والكلام عن مشاعرهم والتعبير عن مخاوفهم.

بدأت بتحضير الألوان والأوراق، سألوني: «**ليش كل هاي الأشياء؟**» فأجبتهم: بدنا نرسم عن غزة. . . وما لفت انتباهي هو أنني عندما وضعتُ الأوراق على الأرض قال لي محمد: «**مس، صح هاد متل الكفن؟**» تعجبت كثيراً من سؤاله، ولم أتوقع أن يربط الورق بطوله كأنه كفن! حاولت تركيز جميع حواسي نحو الأطفال . . .

بدأ الرسم عن غزة من (**بيوت مدمرة، جيوش، أطفال، سماء، شمس حزينة، قناصين، طائرات، صواريخ، دماء . . . شهداء . . .**).

وقفت وجلست، وهكذا كنتُ بين كل طفل وآخر أرى ما يرسم، رأيتهم متلهفين وعطشى للرسم. وعندما بدأتُ الحديث معهم حول ما يرسمونه، وجدت تعبيرات عميقةً لا يمكن أن أحفظها بعقلي، فقررت أن أحمل هاتفي وأسجّل عليه ليكون لي ذكرى. سجلت ما قاله الأطفال، لم يكن بذلك الوضوح وإنما شيء من تلك اللحظة. قال محمد: «**الشمس بتعيّط لأنو غزة ماتت**»، ويزن عبر عن رسمته بقوله: «**الولد ببكي لانو أمه ماتت**»، **محمد قال**: «**هدول كلهم متصاوبين من الطيارة لأنها ضربت على الولد صاروخ. والفدائيين رح تموّت اليهود**»، **ودانيا**: «**رجلو مقطومة والسبب أجا صاروخ وقطعلو إياها**» . . . . **وهنالك الكثير، ورسمت الطفلة سارة (بنت لابسة فستان حلو وما بدها تتصاوب)**.

أنتم رسامون رائعون مبدعون، من سيكون منكم غداً رساماً ويحدثنا عن رسمته بعد الانتهاء من المعرض؟

بدأت الفكرة تتبلور في ذهني بأن أُطور من هذا النشاط نشاطاً آخر وأعمل بهذا المشروع وأطوره بمجموعة من الأساليب المتنوعة لكي أعرضه في نهاية الدورة السنوية لمربيات الأطفال في مؤسسة برامج الطفولة التي احتضنتنا وانطلقنا منها نحو تعليم مبني شامل ومتكامل، وفيه إبداع، ومن خلال الاستفادة من مؤسسة القطان التي تعطينا أساليب وطرقاً في تطوير الإبداع والفن والدراما عند الأطفال.

النشاط الثاني: الرسام يعرض صوره

تم التحضير للمعرض وتهيئة الغرفة الصفية بأبسط الإمكانيات من خلال وضع الطاولات بشكل طولي، ووضع الصور عليها، وقيام الأطفال بملاحظة ما رسمه زملاؤهم.

كان المعرض ناجحاً من حيث مشاهدة الرسومات والتعبير عنها، الاستماع للآخرين. وكان كل طفل يريد أن يُظهر للآخرين رسمته

ومحتوياتها، حيث قام **محمد زين بالتعبير عن رسمته بالشمس التي تبكي لأن غزة ماتت، ودانيا بالحديث عن الرجل الذي قطعت رجله، وهناك من تحدث عن المقاومة** . . . .

بعد الانتهاء من المعرض جلسنا سوياً في جلسة حوار ومناقشة حول ما إذا كان المعرض ناجحاً أم لا؟ هل استمتعتم برسوماتكم، هل عبرتم؟ هل فهمتهم ما يوجد بالرسومات؟ كانت ألفاظ الأطفال تعبيراً عن مدى صيحتهم. وكان لديهم مجال للتعبير عما في داخلهم، عندها شعرت بالقرب أكثر منهم، ابتعد دوري عنهم كمعلمة . . . أصبحت واحدة منهم أناقشهم، أحاورهم . . . نعم عدت إلى سن الطفولة.

النشاط الثالث: قصة في كاريكاتير

خطر في بالي أن أستعين من «الإنترنت» بصور عن غزة مرسومة بشكل كاريكاتير وعرضها على الأطفال لاستخراج قصة، محاولةً معرفة هل يمكن لطفل في الصف التمهيدي أن يعمل قصة من كلامه حتى لو كانت جملة قصيرة؟

تعلمتُ في مؤسسة القطان أن الطفل يمكن أن يستخرج لك قصةً من صورة واحدة، فقررتُ عمل ذلك للتأكد، فإن أصابت أكون قد حققت شيئاً، وإلا فإن لي محاولات أخرى.

تم عمل قصة من الأطفال بعد عرضها صورةً صورة والتعبير عنها والكتابة على اللوحة، ثم تم تجميع الصور إلى أن وجد الأطفال ترابطاً فيما بينها. هنا وجدتُ بعض الصعوبة، قد يكون المطلوب أكبر منهم، ولكن اتفقنا على أن نساعد بعضنا بعضاً، وبمشاركتي معهم استطعنا أن نكوّن ثلاث صور، وتم اختيار الاسم المناسب لها من خلال الإجماع على من الأسماء المختلفة للقصة، منها: غزة، الشهيد، أولاد غزة، حيث وقع الاختيار على الاسم الأخير.

هنا، عدتُ إلى مركز القطان وأجرينا حواراً حول قدرات الأطفال على رواية القصص وإنتاجها، ووفروا لي موادَّ فكريةً حول الموضوع، واتفقنا على أن المهم في هذه المرحلة ليس القصة، بل إعطاء الفرصة للأطفال ليكونوا قاصين ورواة، المهم أن يحكوا أية حكاية وبمنطقهم ومساعدتهم على تطوير قدراتهم، وبناء التداعي، والتسلسل، والمنطقية، وتطوير الحدث . . . .

اختلفت آراء الباحثين بشأن المرحلة التي يبدأ بها الطفل بقص القصة المنطقية، وهناك من يدعي أن الطفل يبدأ في القص من سن العاشرة، بينما يرى آخرون أن التطور هذا يحدث في مرحلة مبكرة قبل سن العاشرة (Hudson & Shapiro).

ويرى البعض الآخر أن تطور القدرة الروائية تسير جنبا إلى جنب مع تطور اللغة والكفاءات اللغوية، وأن هذا التطور يستمر طوال سنوات الطفولة (Eisenberg ،1985; Peterson & McCabe; Snow، 1990)، حيث تتطور القدرة الروائية ضمن تفاعل الطفل المتواصل مع البيئة المحيطة به، وذلك في أثناء المراحل الأولى من نموه؛ أي من عمر سنة ونصف السنة حتى سنتين، بحيث يكون الفرد البالغ في هذه المراحل مسؤولا عن فحوى القصة ومبناها، بينما يتحمل الطفل مسؤولية الإصغاء.

ويبدأ الطفل بمساهمة أكثر من فعالية في تشكيل فحوى الرواية ومبناها مقارنة مع تطور قدراته وكفاءاته اللغوية المختلفة. وتتطلب قدرة الطفل على عرض الرواية التمكن من أنواع ثلاثة من المعرفة هي معرفة لغوية، ونصية، وروائية ومعرفة التنظيم التصوري للقصة. تمكن هذه القدرة الطفل من تحديد علاقة ظرفية، زمنية وسببية بين الأحداث والمواقف.

وتنشأ قدرة الطفل على إنتاج قصة في أثناء التفاعل مع شخص بالغ آخر، والقدرة على إضافة معلومات جديدة إلى التفاعل منذ سن الثالثة، وذلك بعد أن يذوَت الطفل قوانين القص، بحيث يكون بمقدوره إنتاج قصة مستقلة.

النشاط الرابع: دراما في مشهد

قصة المسعفين:

قد تكون فكرة استخدام الدراما شيئاً سهلاً، لكنها في الواقع سهلة وصعبة في الآن ذاته لمعلمة مبتدئة، ولكن الإصرار على إيجاد شيء جديد في تجربتي دفعني إلى أن أجعل الأطفال يختارون مشهداً واحداً أحبوه أو كرهوه حصل في غزة.

فقال حمزة: «**كنت أرى المسعفين بساعدو الناس المنصابة ويمسكوهم ويودوهم على الإسعاف**». فكرة رائعة، بدأت أشعر بأن الأطفال يتعايشون، وأنهم على تواصل . . . قام حمزة بتمثيل الدور، ولكن تفاجأت من قيام محمود، فلم يكن على علاقة طيبة مع الأطفال الآخرين، ومن جهة أخرى ردة فعله على عدم قيامه بالدور.

تشجع الأطفال، وقام **باسل** بدور الشهيد عندما سألته لم تريد أن تكون شهيداً؟ قال لي: **أنا بحب أكون شهيد، بدي أروح على الجنة**. وشاركته **أسيل** بدور الأخت التي تبكي على أخيها.

بالإضافة إلى اللعب الذي كان يلعبه الأطفال من عمل أسلحة بالليجو ومطاردات في الساحة، أصبح لعبهم ينحصر في القتال والحرب.

هنا قررت التدخل، وطلبت منهم أن نلعب بالألعاب، ووزعت المسدسات والأسلحة على الفتيات، وطلبت من الأولاد أن يكونوا أهل غزة ويلعبوا بالألعاب، والبنات ينظرن إلي بعيون متسائلة. أكدت الطلب، انخرطوا باللعب وكأنهم يقولون ما دام كذلك سنلعب. قررت تعميق الفعل فاخترتُ أن تكون الشهيدة فتاةً، وأن يبكي أخوتها الذكور عليها، ونجحت، حيث تم الموضوع بسلاسة وبرغبة وانفعال . . . .

النشاط الخامس: زيارة الخيمة (خيمة أم كامل)

طُلب منا كمربيات عمل مجموعات للمشاركة في فعاليات وأنشطة في وادي الجوز في القدس للمشاركة في خيمة أم كامل التي تعرض بيتها للهدم من قبل الاحتلال وتفعيلها، وتم اختيار أطفالي ليكونوا جزءاً من هذه المشاركة بناءً على ما رسموه في النشاط الأول. تم الإعداد للنشاط وتحضير الأطفال وانطلقنا سوياً. كان الوضع صعباً جداً على الأطفال على الرغم من وجود الخيمة التي قد تظللهم من أشعة الشمس، ولكن لم يكن هناك شكوى لأن الأطفال استمتعوا بالرسم على الوجوه وبالبالونات ومشاهدة أطفال آخرين من رياض أخرى. وتم حديث أم كامل حول الخيمة بأن اليهود يريدون أخذ أرضها، وأن خيمتها معرضة للهدم كل يوم. كانت مشاركة الأطفال مشاركةً رائعة لما تصرفوه من سلوك الاحترام الذاتي واحترام المكان والتزام الدور بالأنشطة بالمقارنة مع الرياض الأخرى.

قبل المغادرة من خيمة أم كامل طلب باسل: **بدي مَي بدي اغسل إيدي**، فأجابه محمد: **هون ما في مي متل غزة، لما تروح على الدار بتغسل**. وقفتُ أنظر إلى هذا الطفل، هناك من يسأل وآخر يجيب، فلم أستطع القول . . . .

إن مدى ما حققته هذه الأنشطة بالنسبة للأطفال كان جيداً جداً، فقد ساعدهم على التفريغ من نواحٍ عدة: إبراز قوتهم التعبيرية لفظاً وفعلاً، تطوير قدرتهم على الوقوف أمام الآخرين دون تردد أو خوف، كما أصبحوا جزءاً واحداً يلعبون مع بعضهم البعض دون تفريق، يمشون وأيديهم على أكتاف بعضهم بعضاً، ينتظرون اليوم التالي لملاقاة بعضهم بعضاً.

حتى أنني شعرت بالقرب منهم، أصبحنا أكثر اتفاقاً على الاستماع لأقوال الآخرين، المشاركة، الجرأة في الحديث، الانضباط، اختفى ذلك الحاجز الذي تصنعه أي مربية. وأنا أكتب الآن حقاً اشتقت إليهم كأنني مسحت الغبارَ عن ذلك الرف . . . .

تحليل الرسومات

إن لدراسة رسوم الأطفال أهمية كبيرة في مجالات متعددة في تعلم الأطفال وفهمهم وإدارتهم في الروضة، إذ إنه يتمكن من خلاله اكتشاف ما في داخل الطفل، كمشاعر العدوانية والقلق والغيرة والخوف، أو ما يعانيه من شعور النقص والانطوائية، أو المغالاة والتعالي، وغير ذلك من الحالات النفسية التي تجد انعكاسَها في رسومه.

والتحليل النفسي يفسر ما تعنيه الحركات، ففي كل خطوة يخطوها الطفل، وفي كل لون يضعه في كل جزء من أجزاء الصورة يستطيع المحلل أن يخبرنا عما ما هو موجود، كالقلق، والتوتر، والكبت، والحرمان.

فالتحليل يساعدنا بتزويدنا بالمعلومات الوافية عن شخصية الطفل وسلوكه عن طريق رسومه. إذا لم نعرف هذه الحالات النفسية المهمة، فإننا لا نستطيع معالجتها. وأجمع علماء النفس على أن **فن الطفل لغة عجيبة وغريبة لا يأتي نموها عن طريق التدريب الآلي، بل عن طريق نظرته الجديدة للعالم**.

ومن المستحسن أن يأتي الأطفال للفن طوعاً وبرغبتهم، ويسمح لهم بالتعبير بكامل إرادتهم واستخدام المواد والخامات المختلفة التي يحسون برغبة قوية نحوها.

علاقة رسوم الطفل بحالته النفسية

يوجد اتجاهان في تحليل الرسم وتفسيره، أحدهما يتخذ منه أداة لمعرفة المستوى المعرفي للطفل كاختيار رسم «جرل» الذي انبنت فكرته على مقولة منطقها أن الطفل يرسم ما يعرفه، وكلما رسم أجزاء أكثر حصل على درجة أعلى.

أما الاتجاه الثاني، فقام على الرجوع في تفسير الرسم وفقا للنظرية الإسقاطية للرسم القائمة على الحتمية النفسية، واثر الدوافع اللاشعورية، حيث يكون التركيز على معرفة الأبعاد المختلفة لشخصية المفحوص وموقفه النفسي ومفهومة عن ذاته وتقديره لها واتجاهاته وتعبير عن أفكاره وانفعالاته.

إن القصص التي يذكرها الأطفال والتعليقات التي يضعونها على رسومهم، ذات دلالة وفائدة في تحليل وتفسير انفعالات الطفل ومشكلاته التي تدعم استنتاجات الفاحص. وتشير الدراسات

إلى وجود علاقة وطيدة بين التطور المعرفي والاجتماعي والعاطفي واللغوي والذهني لدى الطفل. وإضافة إلى ذلك، قامت دراسات أخرى بمتابعة تطور رواية من سن الطفولة حتى سن البلوغ، وأظهرت نتائج هذا النوع من الدراسات أن الروايات التي يرويها الأطفال تحتوي على عناصر معينة من الرواية الناضجة، وذلك منذ مرحلة الطفولة المبكرة، مثل الاهتمام بالأحداث، والبيئة الزمنية، وإبراز الشخصيات.

لاحظت من خلال مشاهدتي للصور والتعليقات التي ذكرها الأطفال أن هناك مجموعة من الأفكار التي كانت مشتركة فيما بينهم، وهذا شيء طبيعي لأنهم تعرضوا للموقف نفسه، أو ما نسميه الأزمة التي كانت مرئية من خلال شاشة التلفاز، أو من خلال السمع، كلها تتحدث عن الموضوع نفسه.

ومن خلال قراءتي للكتب التي تتعلق برسوم الأطفال، استطعت أن أقوم بتحليل بعض الرسومات، ليس بالعمق المطلوب لأنني لست محللة نفسية، بل بشكل عام من حيث الجنس، وحجم الرسمة، والعيون، ومكان الرسمة، وحركة الرسمة، والألوان.

الجنس

اتضح لكثير من الباحثين أن الجنس الذي يرسم أولاً هو المفضل لدى المفحوص، والسبب الأساسي لعملية التفضيل هذه هو تقمص المفحوص وانتماؤه للجنس الذي يرسمه أولاً. لذلك، فان الغالبية العظمى من الناس يرسمون أشخاصاً من نفس جنسهم قبل الجنس الآخر، وأن الجدير بالاهتمام أن الإناث يفقن الذكور في إظهار الفروق الجنسية في الرسوم.

ومما لفت نظري في رسومات الأطفال أن الأطفال الذكور رسموا ذكوراً والإناث رسمن إناثاً وذكوراً. وباعتقادي يعود هذا إلى الدور الذي يقوم به الذكر أثناء الحرب ومدى مشاركته في رمي الحجارة والاستشهاد، ومدى دور وسائل الإعلام في ما تعرضه من مواقف للذكور أثناء الحرب. فعند رؤيتهم للأطفال الذكور أو الشباب يحملون الحجر أو السلاح، فهم من مثل جنسهم، لذلك يقومون برسم الذكر قبل التفكير بدور الأنثى.

حجم الرسمة

نلاحظ من خلال الرسمة (1) أن الطفل رسم مجموعة من الأشخاص وهم شهداء، وكيف يسقط الصاروخ عليهم؛ أي أنه يُقتل العديد من الأشخاص، وهذا يدل على أن حجم الرسمة يدل على مجابهة ضغوط البيئة والإحباط بأسلوب عدواني قوي.

أما الصورة (2)، فنلاحظ أن الطفلة قد رسمت صورة لفتاتين تعبر عن إصابتهما برصاص الاحتلال في رأسيهما، وكما تقول «ماكوفر»، يدل هذا على الشعور بالنقص والانزواء والخوف.

مكان الرسمة

تعتقد ماكوفر أن النسبة بين حجم الورقة المعطاة ومساحتها تمثل الصلة الديناميكية بين الفرد وبيئته. ويؤيد ليفي هذا المفهوم بأن هذه النسبة ربما تشير إلى التصور الوالدي للمفحوص أو إلى تصوره لذاته المثالية. أما إذا تأكدنا من أن رسم الشخص لا يمثل صورة الذات أو الجسم، فقد يكون إسقاطاً لذاته المثالية. وفي هذه الحالة، فمن الجائز أن تكون المبالغة في كبر الرسم تعويضاً عما يشعر به المفحوص من نقص وعدم كفاية.

بالنسبة إلى اختبار (ليفي)

بالنسبة للحركة في الرسم، فقد ظهر أن من يرسمون أشخاصاً توحي أشكالهم بالحركة الشديدة هم في الأغلب من المعروفين بالحركة والنشاط. ولكن كثيراً ما تكون الحركة في الرسم تعبيراً عن شعور المفحوص بالنقص بالتوافق المشبع. أما الرسومات التي توحي بأشكال صلبة غير متحركة، فغالباً ما تشير إلى أن صاحبها يشكو من صراعات خطيرة وعميقة الجذور تحكمه في استمرارها قوى متحجرة صلبة.

أما من حيث الحذف والتشويه، فقد يرمز في كثير من الأحيان إلى صراع مكبوت أو شعوري حول الجزء المحذوف أو المشوه. وفي مثل هذه الظاهرة، فقد رسمت الطفلة «دانيا» صورةَ رجل رجله مبتورة نتيجة الحرب، ومن الممكن ملاحظة الحذف والتشويه من خلال «محو» الطفل لبعض الأجزاء التي سبق أن رسمها، أو الاختلاف

في الضغط الشديد والخفيف على القلم عند رسمه. وكذلك يعتبر التظليل دليلاً على القلق والتوتر النفسي.

الدلالات الخاصة برسم الرأس

يعبر الرأس وملامح الوجه بصفة عامة عن الحاجات الاجتماعية، ويعتبر الوجه علامة التوافق الاجتماعي. وتذكر «ماكوفر» أن الرأس عادة هو أول جزء من الجسم يرسمه الطفل، كما أنه يغلب أن يرسم بتفصيل ومهاره وحذر.

وتذكر ماكوفر أيضاً أن الرأس قد يبالغ في حجمه وبصورة مخلة نسبياً لأسباب عدة:

- تعبير عن إحباط سببه تأخر عقلي.
- عجز دراسي لشخص متوسط الذكاء.
- قد يكون تعبيراً عن حساسية زائدة لإصابة عضوية وتعبيراً عن النقص والعجز الجسمي.
- انشغال زائد بالخيالات.

لقد لاحظت من رسوم الأطفال أن هناك من ركز على بروز الرأس وكبر حجمه، دلالة على الإصابة التي تعرض لها المصابون أثناء الحرب على غزة.

الدلالات الخاصة برسم العيون

العيون هي مستقبلات للمنبهات البصرية، وهي عادة أول ما يرسمها الأطفال الصغار. وقد تعبر العيون عن دلالات عدة مثل الرغبة، والشك، والحيرة، والخوف، أو الشعور بالذنب، فإن كان هناك ما يدل بوضوح على أن العينين مثبتتان على شيء، فإن الطفل يحاول التأكيد على ما ينظر إليه، أو يحاول تجنب رؤيته عن طريق النظر إلى أعلى أو إلى الخارج، وقد تكشف النظرة العدوانية عن أمور كثيرة.

أما من خلال رسومات أطفالي، فقد تنوعت رسمة العيون، فمنهم من رسمها مقفولةً ومعناها ما رغبة قوية في تجنب المثيرات البصرية الأليمة، وبالطبع هذا ليس غريباً، ومنهم من رسمها صغيرة فكانت دلالة على الرغبة في رؤية أقل ما يمكن.

الدلالات الخاصة برسم الفم

يستخدم الفم للتعبير عن الانفعال، فقد يكون تعبيراً عن العدوان، وبخاصة إذا رسمت الأسنان بارزة، إلا أنه يجب أن لا تُقبل مثل هذه التعبيرات الانفعالية بصورتها الظاهرة.

فمن الأطفال من رسم الشخصَ الذي أصيب برصاص جيش الاحتلال يحمل ابتسامةً رقيقة، وهذا يدل على مجرد الرغبة في أن يظهر الطفل بصورة مقبولة اجتماعياً، على عكس أطفال آخرين عبروا عن الوضع برسم ابتسامة منحنية واضحة تعبيراً عن الموقف الذي ألم بهم، مرفقين ذلك بنقاط من الدموع المنهمرة على وجه الطفل.

أما بالنسبة لحذف الأذرع، فكان له دور واضح، حيث يوحي بأن الطفل يشعر بعدم الكفاءة وانعدام القوة وأيضاً عدم الشعور بالأمان وصعوبة التعامل مع البيئة.

كان لهذا الجانب دور واضح في رسومات الأطفال، فكان الجزء

الأغلب في رسوماتهم أن الأيدي غير متوفرة، وكما ذكر سابقاً، فإن دل ذلك على شيء، فإنه يدل على عدم الشعور بالأمان.

هناك أيضاً ملاحظات عدة لاحظتها أثناء مشاهدتي للرسومات، ألا وهي استخدام الضغط بالقلم، فقد يعبر الضغط بالقلم عن:

- توتر عضلي زائد.
- ثقل درجة الخطوط وخفتها يشيران إلى مستوى الطاقة وبتوتر لدى الطفل.
- تشيع هذه الظاهرة في رسوم الأولاد أكثر من رسوم البنات.

ملاحظتي كانت بأن نسبة التوتر لدى الذكور أكثر من الإناث، وهذا واضح في رسوماتهم ويدل على الاندفاع.

هناك من الأطفال من استطاع من خلال رسمه أن يحدد الزمان (النهار، الليل)، ويدل على أنه يستطيع أن يقدر وقت حدوث الحدث. والكثير من الأطفال ركز على مكان الإصابة في الجسم كالرأس، والصدر، وبتر الرجل، والاستشهاد. ولم يكتف الأطفال برسم البيوت المهدمة أو الاستشهاد والقتل والسلاح وغيرها، بل عبروا عن أنفسهم أيضاً من خلال الفتاة التي لا تريد أن تصاب حفاظاً على ملابسها الجميلة التي لا تريدها أن تتلطخ بالدماء. فنرى هنا القيمة الجمالية والحساسية لدى الطفلة، وأخرى عبرت عن أن الصواريخ ستشوّه البيئة عند سقوطها على الأرض الخضراء وقتلها الأزهار.

أما من حيث استخدام الألوان، فإن الطفل يضع أهميتها على أساس العاطفة وما تعنيه بالنسبة له وما يشعر فيها من لذة ومتعة، وينبغي علينا معرفة ما يفكر به الطفل باللون الذي يختلف عما يفكر به الكبار. لذا ينبغي أن نضع الألوان التي يحبها الطفل ويرغبها فيها بين يديه وندعه يجرب بها ويضعها بما يرضي نفسه وتحقق رغباته وتشعره بالسعادة والمتعة، وتنسجم مع انفعالاته وأحاسيسه وعواطفه ومشاعر في التعبير.

من المعروف أن اللون الأحمر يرمز عموماً إلى الخطر، ويرمز الأخضر إلى الفرح وقت الربيع، والأسود إلى الحزن وهكذا . . . .

أما الأطفال، فإنهم ينظرون نظرة عاطفية أو حدسية، قد يكرهون أو يحبون ألواناً معينة، ويخبرنا علماء النفس أن الطفل يدخل حدسياً وذاتياً في طبيعة اللون، أي أن ذاتيته يكون لها فاعلية كبيرة في اختيار اللون واستخدامه، وأن الطفل يكتسب بالخبرة والتجربة بالألوان مفاهيم كثيرة يقدر فيها عمق الألوان ودرجاتها وخصائصها.

في النهاية، أطفالنا حقا مبدعون، ولكنهم يحتاجون إلى من يقف معهم ويوجههم، فلنكن عوناً لهم ولنبدع معهم حتى نشعر أننا نستحق أن نكون مربين قبل أن نكون معلمين.

ربى الكيلاني
مؤسسة برامج الطفولة